وقفات مع سورة التوبة

إعداد

عمر بن موسى الحافظ

الكتاب موافق للمطبوع

مصدر هذه المادة:

الكتيبات الإسلامية

www.ktibat.com

دار القاسم

مقدِّمة

الحمـد للـه العلي القـدير، والصـلاة والسـلام على البشير النـذير وصـحبه وأتباعـه مـا أورق الزهر وفاح العبير.

أما بعـد فهـذه أوراق عنوانهـا «**وقفات مـع سـورة التوبة**» تحـدثت فيهـا عن الجهـاد وغزوة تبـوك «العسـرة» ومواقـف المؤمـنين والمنافقين عن الجهاد ودروس وعبر من خلال بعض آيات هذه السورة العظيمة.

كـل ذلـك بإيجاز شـديد فليس المقـام مقـام إسـهاب، وأشـكر المـولى جلت قدرتـه على توفيقـه وامتنانـه وتيسـيره أولًا وأخـيرًا، ومـا عملي إلا بضـاعة مزجـاة وجهـد المقـل، ولكن عسى اللـه أن يجعلـه مباركـاً مخلصاً. وقـديمًا قيل:

لا ترج شيئًا خالصًا لـك فـالغيث لا يخلـو من

وصـلَّى اللـه وسـلم على نبينـا محمـد وآلـه وصحبه وسلَّم.

تمهيد

الجهاد وحكمة ومشروعيته

1- الجهاد في سبيل الله

ويسمى: القتال أيضًا.. هو في اللغـة: محاربـة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ مـا في الوسـع والطاقة من قول أو فعل[1] وجهـد طلب حـتى

(?)[1] لسان العرب (1/708-709).

وصل إلى الغاية وبلغ المشقة[1] أما القتـل في اللغة فهو الإماتة[2].

وأمـا تعريـف الجهـاد في الشـرع: فهـو قتـال الكفار لإعلاء كلمة الله والمعاونـة على ذلك[3] وقد يطلق الجهاد في النصوص الشرعية على غير قتال كما قـال ﷺ: «**المجاهد من جاهـد نفسه في طاعة اللـه**». الحـديث[4] ولكنـه عند الإطلاق يراد به قتـال الكفـار لإعلاء كلمـة الله تعالى[5].

2-حكم الجهاد: فرض كفايـة لقولـه تعـالى: {**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَـــــالُ**}.[6] وقولـــــــه: {**وَقَــاتِلُوا فِي سَــبِيلِ اللَّهِ**}.[7] وقولــه: {**وَمَا كَـانَ الْمُؤْمِنُـونَ لِيَنفِـرُوا كَافَّةً**}.[8]

وبعض العلمـــاء يقســـم الجهـــاد إلى قسمين:

1-جهاد الطلب والابتداء وهو تطلب الكفار في عقر دراهم ودعوتهم إلى الإسـلام وقتـالهم إذا

---

[1](?) المعجم الوسيط (1/143).
[2](?) القتال في الإسلام (11).
[3](?) أهمية الجهاد ص 116، القتال في الإسلام 13، فتح الباري (6/3).
[4](?) رواه أحمد وابن حبان وسنده جيد قاله الأرنؤوط في تحقيقه لزاد المعاد (3/6).
[5](?) أهمية الجهاد ص 117، زاد المعاد (3/11) للاستزادة.
[6](?) سورة البقرة، الآية 216.
[7](?) سورة البقرة، الآية 190.
[8](?) سورة التوبة، الآية 122.

لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام وحكم هذا فرض على مجموع المسلمين.
2-جهاد الدفاع وحكمه: فرض عين على المسلمين عمومًا حتى يندفع شر الأعداء وهذا بإجماع علماء الإسلام.[1]

5-مراحل القتال التشريعية:[2]

1-كونه في مبدأ الأمر محرمًا على المسلمين.
2-كونه مأذونًا به فقط من غير إيجاب.
3-كونه واجبًا على من قاتل المسلمين.
4-كونه فرضًا على المسلمين على عموم الكفار.

د- مكانة الجهاد في الإسلام: الجهاد في الإسلام عبادة عظيمة، من أفضل القربات إلى الله وأكثرها أجرًا ومثوبة كيف لا وبسببه تقوية ركائز الدعوة الإسلامية، وينشط أهلها وتتعمق في الأرض جذورها، وهو الذي يجعل أعداء الحق يخضعون لسلطان الله فيتركون المسلمين يؤدون عبادتهم ويقيمون دولتهم وينشطون في دعوة الآخرين إلى الله ورسوله.[3]
ومما يدل على مكانته وأهميته هذه الآيات والأحاديث:

---

[1] (?) منار السبيل (1/383) أهمية الجهاد 134 وما بعدها زاد المعاد (2/12).
[2] (?) أهمية الجهاد 136 وما بعدها.
[3] (?) القتال في الإسلام ص 45.

1- قال تبـارك وتقـدس: {**إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَـهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَــاتِلُونَ فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـدًا عَلَيْـهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيـلِ وَالْقُـرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـــدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِـــرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَــايَعْتُمْ بِـــهِ وَذَلِـــكَ هُـــوَ الْفَـــوْزُ الْعَظِيمُ**} [1].

2-وقال تعالى: {**يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَــارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَـــذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُـــــــونَ بِاللَّهِ وَرَسُـــــــولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِـــكُمْ ذَلِكُمْ خَيْـــرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَـــةً فِي جَنَّاتِ عَـــدْنٍ ذَلِـــكَ الْفَـــوْزُ الْعَظِيمُ**}.[2]

3- وقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـــــوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـــــهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـــؤْمِنِينَ أَعِـــزَّةٍ عَلَى الْكَـــافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَـافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**}.[3]

---

[1] (?) سورة التوبة، الآية: 111.
[2] (?) سورة الصف، الآيات: 10، 12.
[3] (?) سورة المائدة، الآية: 54.

4-وقال ﷺ: **«إن أبـواب الجنـة تحت ظلال السيوف»**.[1]
5-وقـــال ﷺ: **«من مـــات ولم يغـــز، ولم يحدث نفسه بغزو مات على شـعبة من نفاق»**.[2]
6-وقـال ﷺ: **«ربـاط يـوم وليلـة خـير من صـيام شـهر وقيامـه، وإن مـات جـرى عليـه عملـه الـذي كـان يعلمـه وأجـرى عليه رزقه، وأمن الفتَّان»**.[3]

5-أهداف الجهاد وغايته: [4]

26- للجهــاد أهــداف وغايــات عديــدة أسماها:

1-تعبيــد النــاس للــه وحــده وإخــراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد وإزالة الطواغيت كلها من الأرض لأن خضـوع البشـر للبشر وتقديم أنواع العبادة لهم إفساد للأجيال المتعاقبـة على مـر العصـور وتعـاقب الـدهور كيف لا والله تبارك وتقدس يقول: {**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـدِّينُ لِلَّهِ فَـإِنِ انتَهَـوْا فَلا عُــدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**}.[5] فبمقاتلــة المشــركين يــزول الشــرك ولا يعبــد إلا اللــه

---

[1] (?) رواه مسلم.
[2] (?) رواه مسلم.
[3] (?) رواه مسلم.
[4] (?) أهمية الجهاد ص 158 وما بعدها.
[5] (?) سورة البقرة، الآية 193.

وحده فـيرتفع البلاء عن عبـاد اللـه من الأرض وهو الفتنة.
2-رد اعتداء المعتـدين على المسـلمين لقولـه جل وعز: {**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَــدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}.[1]
3-إزالة الفتنة عن الناس ليسـرى في قلـوبهم النور الخالد من غـير مـا عـائق، والفتنـة ثلاثـة أنواع:
1- التعذيب ومضايقة المسلمين ليرتدوا عن دينهم.
2-الأنظمة والقوانين الشركية والفسـاد الـذي تسببه في شتى مجالات الحياة.
5- فتنة الكفار أنفسهم لغيرهم بما يقيمونه من مناهج تفسد فطر الناس وعقولهم.

هذه الأهـداف مردودهـا عـام على المسـلمين وعلى غــيرهم، وثمت أهــداف تعــود على المسلمين أنفسهم ألا وهي:
1-تمحيص المؤمــنين أنفســهم من ذنــوبهم، وتطهيرهم من خطاياهم.
2-تربيــة المؤمــنين على الصــبر والشــجاعة والبذل والطاعة.

---

[1](?) سورة البقرة، الآية 190.

أما وقد رأينا هذه الأهـداف السـامية والغايـات السامقة، فإننا لنقف متسـائلين بانـدهاش أين المغرضون وأعداء الدين من هذه الأهداف ؟؟

«لقد جرت عادة الإفرنج أن يعـبروا عن كلمـة الجهـاد بـالحرب المقدسـة إذا أرادوا ترجمتهـا بلغاتهم، وقد فسـروها تفسـيرًا منكـرًا وتفننـوا فيـه، وألبسـوها ثوبًـا فضفاضًـا من المعـاني المموهة بحيث إذا سـمع البعض كلمـة الجهـاد تمثَّل صـورة مـواكب من الهمج المحتشـدة، مصلتةً سيوفها، متقدةً صدورها بنـار التعصـب والغضـب، متطـايرًا من عيونهـا شـرر الفتـك والنهب، عالية أصواتها بهتاف: الله اكبر زاحفة إلى الأمـام مـا إن تـرى كـافرًا حـتى تمسـك بخناقه وتجعله بين أمرين إمـا أن يقـول لا إلـه إلا اللـه فينجـو بنفسـه وإمـا أن يضـرب عنقـه فتشخب أوداجه دماً.

وإن تعجب فعجب حملاتهم وغـــــاراتهم على شعوب آمنة وادعة لا ذنب لها إلا أن أنعم اللـه عليها بمعادن وكنوز وخيرات

في أرضها[1]». وبعد هذا كله يدعون إلى الإنسانية والوطنية وإلى زمالـة الأديـان وإلى التعـايش السـلمي في العـالم وليمسخوا كل معلم جهادي يبقى صـغر أو كبر وهنا نقول بملئ أفواهنا:

---

[1](?) الجهاد في سبيل الله ص 1 بتصرف.

والـــــــدعاوى إن لم بيناتٍ أصحابها أدعيــاء

ولقـد صـدق فيهم قـول القائـل رمتـنى بـدائها وانسلّت.

إن الإسـلام تجنب لفظـة الحـرب وغيرهـا من الكلمات الـتي تـؤدي معـنى القتـال في اللغـة العربية، واستبدل بها كلمة الجهاد الـتي تـؤدي معنى بذل الجهد والسعي، فلماذا استعاض بها الإسلام عن الكلمـات القديمـة الرائجـة إنَّ مـا يُجزم به – والله أعلم – بأن سبب ذلك هـو أن لفظــة الحــرب كــانت ولا تــزال تطلــق على القتـال الـذي يشـب لهيبـه وتسـتعر نـاره بين الرجال أو الشعوب لمآرب شخصية ليس فيـه رائحــة الفكــرة أو الانتصــار لمبــدأ، وبمــا أن القتال المشـروع في الإسـلام ليس من قبيـل هــذه الحــروب لم يكن بــد من تــرك لفظــة الحـــرب، فالإســلام لا يهمــه الاســتيلاء على الممالك وإنما يهمه سعادة الشعوب، واستعلاء فكرته، وتعميم منهاجه. [1]

فالبدايـة كـانت من التسـمية، فمـا أعظم هـذا الدين عنـدما يقطـع الطريـق على خصـمه من أوله.

إن الجهاد الإسلامي ليس بجهـاد عـديم الغايـة بل هو جهـاد في سـبيل اللـه، جهـاد في اللـه، وللــه، وباللــه، لا شـجاعة ولا حميـة ولا طلبًـا

[1] (?) الجهاد في سبيل الله الصفحات 10 -12 بتصرف.

للمغنم بل لهدم بنيان النُّظم المتناقضة، والمناقِضة لمبادئه ولإقامة الشرائع الإسلامية مكانها، «وقد تميز الجهاد الإسلامي بأنه يقف عند انتهاء سببه الموجب له إما بقبول الدعوة والدخول في الإسلام إيمانًا به واختيارًا له، وإما بضمان مصالحة وأمان يفرضه عهد موثق، يستوجب عدم الوقوف في طريق الدعوة وعدم الاعتداء عليها، وعلى القائمين بها والداعين إليها».

ثم إن إسلامنا العظيم وضع ضوابط أخرى للمقاتلين وقائدهم فقد بوَّب العلماء في مصنفاتهم أبوابًا في هذه الموضوع[1] ، وأدَّب المقاتلين بآداب عدة فأمرهم بطاعة القائد في غير معصية، ونهاهم عن الغدر والمثلة والغلو وقتل الصبية والنساء والمسلمين إلى آخر تلك الآداب العظيمة التي لو ذهبنا نسوق النصوص فيها لطال بنا المقام فلو كان الجهاد كما زعموا وشوهوا لما وضعت له هذه الضوابط ولكن {**وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ**

فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ

---

[1](?) انظر فتح الباري 6/183، فقه السنة 3/147 وما بعدها، افتراءات حول غايات الجهاد ص 34 وما بعدها تحت مبحث: مبادئ تحكم كيفية القتال الإسلامي، نيل الأوطار باب الدعوة قبل القتال ص 34 والأبواب بعده ص 345-349.

قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِـزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.[1]

وعلى حد قول القائل:

فقل للعيـون الرُّمـد إيـاك

سنا الشـمس فاستغشـي

خاتمة متألقة للإمام الشاطبي:[2]

إن النفــوس محترمــة محفوظــة، ومطلوبــة الإحياء بحيث إذا دار الأمـر بين إحيائهـا وإتلاف المـال، أو إتلافهـا وأحيـاء المـال كـان إحياؤهـا أولى، فإن عـارض إحياؤهـا إماتـة الـدين كـان الدين أولى، وإن أدى إلى إماتتها كما جـاء في جهاد الكفار، وقتل المرتد، وغير ذلك...

---

[1] (?) سورة المائدة، الآية 41.

[2] (?) الموافقات للشاطبي (3/39) كما في القتال ص 45، وانظر كتاب افتراءات حول غايات الجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين؛ فهو قيِّم.

الفصل الأول

مختصر لأحداث غزوة تبوك

أولًا: سبب غزوة تبوك

1-اختلف أهل السيرة في شبب هذه الغــزوة، فــذكر ابن ســعد وشــيخه وغــيره قــالوا: بلــغ المسلمين من الأنباط الــذين يحملــون الــزيت يقدمون به من الشام إلى المدينــة أن الــروم.

جمعت جموعًـــا وأجلبت معهم لَخْم وجـــذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء فندب النبي النـاس إلى الخـروج إلى تبوك.[1]

2-وروى الطـبراني: من حـديث عمـران بن حصين قـال: كـانت النصـارى نصـارى العـرب كتبت إلى هرقـل إن هـذا الرجـل الـذي خـرج يـدعي النبـوة هلـك، وأصـابتهم سـنون فهلكت أموالهم، فبعث رجـل من عظمـائهم يقـال لـه قباذ وجهز معـه أربعين ألفاً فبلـغ النـبي ولم يكن للناس قوة وكـان عثمـان قـد جهـز عـيرًا إلى الشام فقال يا رسول الله هذه مئتـا بعـير بأقتابها

وأحلاسها ومئتا أوقيـة، قـال فسـمعته يقـول لا يضر عثمان ما عمل بعدها.[2]

3-وذكـر أبـو سـعيد في شـرف المصـطفى، والبيهقي في الدلائل بسنده عن عبد الـرحمن بن غرم إن اليهود قالوا يا أبا القاسـم إن كنت صـادقًا فـالحق بالشـام فإنهـا أرض المحشـر وأرض الأنبيـاء فغـزا تبـوك لا يريـد إلا الشـام

[1](?) فتح الباري (8/139)، من معين السيرة ص 435، التاريخ الإسلامي (2/353).

[2](?) انظر فتح الباري (8/139).

فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة بني إسرائيل[1]:{**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا**}.[2]

4-وقال ابن كثير عزم رسول الله على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**}.[3]

5-قال صالح الشامي: يبقى ما اعتمده ابن كثير هو السبب المعقول وهو الدعوة إلى الله تعالى[4] هذا وقد أطبق أهل العلم

على أن هذه الغزاة كانت في شهر رجب من سنة تسع للهجرة.[5]

ثانيًا: بعض الشواهد على مفاجأة الرسول للأعداء:

عن الصعب بن جثامة أن رسول الله سئل عن أهل الدار – أي المنزل – من المشركون

---

[1] (?) انظر فتح الباري (8/140).
[2] (?) سورة الإسراء، الآية 76، قال الشوكاني قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر، فتح القدير (3/249).
[3] (?) البداية والنهاية (5/3) والآية من سورة التوبة، الآية: 123.
[4] (?) من معين السيرة ص: 435.
[5] (?) فتح الباري (8/139)، زاد المعاد (3/526).

يـبيتون فيصـاب من نسـائهم وذراريهم قـال: **«هم منهم»**.[1]

قال أحمـد وإسـحاق: لا بـأس أن يـبيَّت العـدو ليلًا.[2]

وعن عبد اللـه بن عمـر رضـي اللـه عنهمـا أن النبي أغار على بني المصـطلق وهم غـارُّون وسـبى ذريتهم وأصـاب يومئـذ جويريـة رضـي الله عنها.[3]

وهذا وقد نقل ابن بطال أنه اتفق الجميع على المنع من القصـد إلى قتـل النسـاء والولـدان، أما النساء فلضعفهن وأما الولدان فلقصورهم عن فعل الكفار ولما في استبقائهم جميعًا من الانتفـاع إمـا بـرق أو بالفـداء فيمن يجـوز أن يُفادى به.[4]

ثالثًا: مختصر لأحداث الغزوة :

عزم الرسول على قتال الـروم لأنهم أقـرب الناس إليـه وأولى النـاس بالـدعوة إلى الحـق لقربهم إلى الإسلام وأهله، كان هذا في السنة التاسـعة من الهجـرة، وكـان ذلـك في زمـان عســرة من النــاس. وجــدب من البلاد، وحين طــابت الثمــار والنــاس يحبــون المقــام في ثمـارهم وظلالهم، فجلَّى للنـاس أمرهـا ودعـا من حوله من أحياء الأعـراب للخـروج فـاجتمع

---

[1](?) رواه الشيخان.

[2](?) نيل الأوطار (7/260) وانظر فقه السنة (3/165-166).

[3](?) رواه الشيخان.

[4](?) نيل الأوطار (7/261-262).

معه بشر كثير، وتخلّف آخـرون بغـير عـذر من المنـافقين والمقصّـرين فلامهم اللـه سـبحانه أشد اللوم، وبعث خزاياهم أشد البعـثرة، ولأن المسير طويـل والحـر شـديد، والحـال رقيـق، والظهر قليل، فلم يكن هناك بد من اسـتحثاث الموسرين على تجهيز الجيش، فأتى الصــديق بكل مالـه، وأتى الفـاروق بشـطر مالـه، وأتى عثمان بمال كثير وجهَّز ثلاثمائـة بعـير للجيش، أيضًا أنفق العباس ، وطلحة وعبد الـرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، ومع هـذا كلـه فقد ضاق الظهر بالمسلمين فجاء سـبعة نفـر للرســول يريــدون منــه أن يحملهم، لبعــد الشـُّقة فاعتــذر فتولــوا مغرورقــة أعينهم بالدموع فلما اطّلـع اللـه على صـدق نوايـاهم، رزقهم المطايـا الـتي تُقلهم، فخرجـوا معـه . وكان قد طلب من بعض من تظاهر بالإسلام الخروج للغزاة فـامتنعوا مُظهـرًا الخـير مريـدًا التخــذيل والفــرار قــائلًا: أذن لي ولا تفتــني فليس لي صبر

على النســاء اللــواتي وصــفهن كيت وكيت، فقبل النبي ذلك، بل وتغاضـى عمن سـخروا من نفقــات المؤمــنين الصــادقين في تجهــيز الجيش، وتغاضـــــى كـــــذلك عن المثبِّطين والمخذِّلين على ما سيأتي تفصيله.

بعد ذلك خرج بجيشه الجرار ماخرًا عباب الفيافي والقفار وكان العشرة من الرجال يتعاقبون على بعير واحد، وكان زادهم تمر مسوَّس، ونخالة شعير سنخة، ومع ذلك مضوا بيقين وصدق ما شهد التاريخ مثلهما، ولم يزل الجيش يغد السير بين الظمأ والمخمصة والنَّصب حتى وصل تبوكًا، فلم يجد للروم أثرًا على حد قول القائل:

قوم إذا الخطب دوى في
وسار يقذف أشداقه نـارًا
قـالوا لي والـردى تغلي
إن كنت ريحًا فقـد لاقيت

ولكن ثبتت هيبة الإسلام في الأرض، على الرغم من عدم حصول القتال فلم يلبث أمراء قبائل جنوب الشام أن جاؤوا للرسول معاهدين ومذعنين لدفع الجزية وبذلك أمَّن المسلمون حدود الجزيرة الشمالية، وأرهبوا كل رعشيشٍ يحاول النيل من الدولة الفتية. ثم قفل الجيش عائدًا إلى ديار الهجرة الطيبة[1] وقبل وصوله إلى المدينة أوحى الله تعالى إلى نبيه عن مسجد الضرار الذي بناه المنافقون كفرًا وتفريقًا للجماعة عن مسجد قباء، وضرارًا لأنهم أرادوا مضاهاة

---

[1](?) بعد أن مكث هناك معسكرًا بضعة عشر يومًا، انظر من معين السيرة 438 المعسكر في تبوك.

مسجد قباء، فأمر ﷺ بتحريق مسجد الضرار وعُصم ﷺ من القيام والصلاة فيه، وعلى مشارف المدينة استقبل النساء والصبيان والولائد جيش النُّصرة قائلين:

طلع البدر علينا من ثنيات
وجب الشكر علينا ما دعا

واتجه ﷺ إلى المسجد وأتى المعُذَرون والمتخلفون فطفقوا يعتذرون ويحلفون فقبل منهم ﷺ علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، وأبى الثلاثة الأطهار الأبرار أن يكذبوا على حبيبهم محمد ﷺ خوفًا من مَثُلات الله جل وعز، فعاتبهم وأمر بمقاطعتهم حتى ضاقت عليهم الأرض برَحَبها ثم ضاقت الأمور وضاقت، فلما استحكمت حلقاتها فرجت ونزلت توبتهم ومغفرة الله لهم في قرآن يتلى إلى أن يرفع من الصدور والسطور.[1]

---

[1] (?) انظر البداية والنهاية (5/ 3- 13)، السيرة النبوية للندوى 307- 320، سيرة ابن هشام 4/ 155- 166، التاريخ الإسلامي (3/ 353- 363) وغيرها من كتب السير والتاريخ.

الفصل الثاني
مواقف المؤمنين

إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني بل فهو بالبذل والجود والعطاء، وهــو بحث عن الكمـال لا يعـرف الكلال، ولا تقبـل من امرئ دعوى إيمانه حتى يثبت ذلـك بالبراهين القاطعات.

لا تــــرض من رجــــلٍ حتى يصدق مـا يقـول

وإليك أيها الحـبيب نمـاذج من أفعـال الرعيـل الأول تُثبت صدق إيمانهم، ولا غرو، فهم الذين سطروا أسـماءهم في سِفْر الخلـود بحـروف من نور يوم أن واطأت أفعالهم أقوالهم.

أولًا: موقــف المؤمــنين من الإنفــاق لتجهيز جيش العسرة:

عن أبي مســعود قـــال: «**لمـــا أُمرنـــا بالصدقة كنا نتحامل - أي يحمل بعضـنا لبعض بالأجرة- فجاء أبو عقيـل بنصـف صــاع، وجــاء إنســان بــأكثر منــه.... الحديث**». (1)

ولك أن تعجب من هذه النفوس المؤمنة الـتي تسلك كل

---

(1) رواه الشيخان.

السبل من أجل الحصول على المال وإن كان يسيرًا من أجل بذلـه في سـبيل اللـه فكم من عمل يسير عظمته النية، وكم من عمل عظيم صغَّرته الطوية.
وأخرج ابن أبي حـاتم من حـديث أنس وغـيره أن عبد الرحمن بن عـوف أحضـر ثمانيـة آلاف درهم، قال ابن حجر: وهذا أصح الطـرق فيـه.[1]
وأخرج ابن جرير الطـبري وغـيره أن رجلًا أتى بناقة حسنة جميلة فألقى بخطامها عند رسول الله .[2]
وعن عبد الرحمن بن سُمرة قال: جاء عثمــان بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النــبي فجعل النـبي يقلبهـا بيـده ويقـول: «**ما ضرَّ ابن عفان ما عمـل بعـد اليـوم يرددهـا مرارًا».** [3]
******
ثانيًا: موقف المؤمنين البكائين:
قال تبارك وتقدس: {**وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِـدُ مَـا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**

---
[1](?) فتح الباري (8/ 423).
[2](?) جامع البيان (14/ 389 الأثر 17015).
[3](?) رواه أحمد والترمذي وحسنه قال الأرنؤوط: إسناده حسن/ انظر حاشية شرح السنة (14/ 110).

حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ}.[1]
هذه صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، فبمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثلها عزّت كلمته فلننظر أين نحن من هؤلاء؟ ولننظر أين رُوحنا من تلك العُصـبة ثم لنطلب النصـر والعـزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر.[2]
يروي لنا هذه الصورة أبـو موسـى الأشـعري فيقـول: أرسـلني أصـحابي إلى رسـول اللـه أسأله الحملان لهم إلى تبوك، فقلت يا رسول الله أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم! فقال: «**واللـه لا أحملكم على شـيء**» ووافقتـه وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزينًا من منــع النبي وأخبرت أصحابي، فلم ألبث إلا سويعةً إذ سـمعت بلالاً ينـادي أي عبـد اللـه بن قيس فأجبته فقال: أجب رسـول اللـه يـدعوك فلمـا أتيتـه قـال: «**خـذ هـذين القريـنين لسـتة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد فـانطلق بهن إلى أصحابك**» فقـال: إن اللـه أو قـال إن رســـول اللـــه يحملكم على هـــؤلاء فأركبوهن فانطلقت إليهم بهن.. الحديث[3].

(?)[1] سورة التوبة، الآية: 92.
(?)[2] في ظلال القرآن (3/ 1685 -1686) بتصرف.
(?)[3] انظر فتح الباري (8/ 138).

فانظر إلى حال تلك النخبة كيف حزنـوا وفاضت أعينهم بالـدموع لمـا لم يجـدوا سبيلًا إلى المعركـة على الـرغم من أن اللــه عـذرهم ولم يجعـل عليهم سـبيلًا وأعجب ممن تمكن من الغـزو وامتلـك الظهر ولكن ثبطه الله فجلس مسرورًا يحسب أنه على شيء.

إذا اشتبهت دموع في تــــبيّن من بكى ممن

فأمـا من بكى فيـذوب لأنَّ بِــه من التقـــوى

******

ثالثًا: أناس تلكؤوا ثم لحقوا بالركب:

ليس بخـاف أن كـل بدايــة صـعبة، وصـعوبة البدايات تختلف بـاختلاف النـاس وأمامنـا فئـة مؤمنة صَعُبت عليها البداية، بداية الانطلاق مـع جيش العُسـرة، ولكنهـا سـرعان مـا تـداركت نفسـها وعـرفت خطأهـا فركضـت إلى اللــه ولحقت بالركب ولسان حالها يقول:

ليس عيبًـــا أن نــــرى عيبنـا الأكـبر أن نبقى

قال ابن هشام[1]: أبـو خيثمـة وعمـير بن وهب يلحقان بالرسول ثم إن أبا خثيمـة رجـع بعـد أن سار رسول الله أيامًـا إلى أهلـه في يـوم حار فوجد امرأتين له قد أعدتا عريشـين لهمـا

---

[1](?) السيرة النبوية (4/ 160- 161).

في حائطه، وبرَّدتا له فيه ماءً، وهيأتا له طعامًا فقال لما

تذكر أن أحبابه يعانون شظف المسير قال: والله لا أدخل عريش إحداكما حتى ألحق برسول الله فهيئا لي زادًا ففعلتا، ثم خرج في طلب رسول الله .

فأدرك عمير بن وهب في الطريق يطلب رسول الله فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلَّف عني حتى آتى رسول الله ففعل حتى إذا دنا من رسول الله وهو نازل في تبوك قال الناس: هذا ركب على الطريق مقبل، فقال رسول الله : **«كن أبا خيثمة»**، فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله فقال له رسول الله : **«أولى لك – أي الويل لك- يا أبا خيثمة»** ثم أخبر رسول الله الخبر فقال له رسول الله خيرًا ودعا له. [1]

وهذا هو الصحابي الجليل: أبو ذر تخلف وأبطأ به بعيره، فأخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشيًا ونزل رسول الله في بعض منازل له، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله: إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله : **«كن أبا ذر»**، فلما تأمل القوم قالوا: يا رسول الله ، هو والله أبو ذر،

---

[1](?) مختصر سيرة الرسول 232، في ظلال القرآن (3/ 1725).

فقال رسول الله ﷺ: **«رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده،**

ويبعث وحده».[1]

******

رابعًا: موقف الثلاثة الذين خلفوا:

كعب بن مالك وصاحباه يتخلفون عن ركب رسول الله ﷺ في ساعة العسرة فقد أدركهم الضعف البشري الذي يُحبب إليهم الظل والراحة فيؤثرونها على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب.

إنها ثقلة الأرض، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، التي قد تتسبب وتلقى بالإنسان في هُوة سحيقة من الندم والألم والصراع المحتدم.

كان كعب ومُرارة وهلال من السابقين الأولين ولم يكن التخلف من عادتهم ولكنها الثقلة والشغف، ولذلك يقول كعب: فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا ولم يزل يتمادى بي حتى فَصَلُوا ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن ارتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يُقدَّر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج الرسول ﷺ فطفت أحزنني ألا أجد إلا رجلًا

---

[1](?) مختصر سيرة الرسول 233، في ظلال القرآن (3/ 1725) من معين السيرة الصفحات: 437- 438.

مغموصًا عليـه في النفـاق، أو رجلًا ممن عـذر الله من الضعفاء... فلما بلغني أن رسول

الله قفل عائدًا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب فلما قيل إن رسول الله قد أظل زاح عني الباطل فأجمعت صدقه فلما قدم جاء المخلفون يعتذرون فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله فقال لي **ما خلفك**؟ فقلت: والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك - وامتحن الله إيمانه وصاحبيه امتحانًا قلَّ نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية التي تقوم على أساس الإيمان والعقيدة والحب والعاطفة ذلك أن الرسول نهى عن كلامهم، فاجتنبهم الناس حتى تنكرت في نفوسهم الأرض فما هي التي يعرفونها ولبثوا على ذلك خمسين ليلة، وكل ذلك لم يؤثر في رابطة الحب والولاء التي كانت تربطهم بالقائد الأول حيث يقول كعب:
آتى رسول الله وهو في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أو لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل عليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني.
فتنكرت له الدنيا وأعرض عنه من كانت له دالة عليه، حتى أقرب قريب له وتعدى الأمر

ذلك إلى أزواج هؤلاء الثلاثة فأمروا أن يعتزلوهن واستكان قبل ذلك مُرارة وهلال وجلسا يبكيان في بيتهما وجاءت أدق مرحلة من مراحل امتحان الحب والوفاء حيث جاء رسول ملك غسان بخطاب لكعب وفيه: **(بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار**

هوان ولا مضيعة فالحق بنا)، فكانت تلك الثلاثة الأثافي إلا أن الغيرة ثارت والحنان هاج فولى وجهه شطر التنور وسجر الخطاب.

ولما تم ما أراده الله من تمحيص النفر الثلاثة وتخليد ذكرهم في القرآن وإقامة البراهين على قوة إيمانهم وحسن إسلامهم وقد اعتصروا كل الاعتصار، أفرج عنهم وأنزل توبتهم من فوق سبع سموات ولم يفردهم بالتوبة لئلا يستوحشوا بل مهَّد لتوبتهم بالتوبة على سيد الأنبياء والمهاجرين والأنصار تكريمًا لهم وجبرًا لخواطرهم ورفعًا لمكانتهم.[1] فقال: {**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ**

[1](?) فتح الباري (8/ 143- 145) باقتباس، السيرة النبوية للندوى ص 214- 218 بتصرف. الظلال (3/ 1732- 1733)، وانظر سيرة ابن هشام (4/ 173- 179) زاد المعاد (3/ 552).

خُلِّفُـوا حَتَّى إِذَا ضَـاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ وَضَـاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُـهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَـأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْـهِ ثُمَّ تَـابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُـوا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.[1]

******

الفصل الثالث
تعريف النفاق

النفـاق مـأخوذ من نَافِقَـاء الـيربوع وهـو بـاب جحره، فاليربوع يحفر لـه جحـرًا ثم يسـد بابـه بترابه ويسمى هذا المدخل القاصعاء ثم يحفـر له مخرجًا آخر حتى إذا بقى من التراب قشرة رقيقة تركها حتى لا يعرف مكان هذا المخرج، ويسمى هذا المخرج النافقاء.

وقيل إنه مـأخوذ من النفـق وهـو السـرب في الأرض الذي يستتر فيه، سُمِّى المنـافق بـذلك لأن المنافق يستر كفره.

وأكـثر علمـاء اللغـة على القـول الأول، وهـو الـراجح لأن النفـق ليس فيـه إظهـار شـيء وإبطال شيء آخر كمـا هـو الحـال في النفـاق وكونه مأخوذًا من النافقاء باعتبار أن المنـافق يُظهر خلاف ما يُضمر أقرب منه كونه مـأخوذًا من النفـق باعتبـار أنـه يخـرج من غـير الوجـه الذي دخل فيـه لأن الـذي يتحقـق فيـه الشـبه

[1](?) سورة التوبة، الآيتان: 117/ 118.

الكامل بين النافقاء والنفاق هـو إظهـار شـيء وإخفـاء شـيء آخـر إضـافة إلى المنـافق لم يدخل في الإسـلام دخـولًا حقيقيًـا حـتى يخـرج منه. [1]

هذا في اللغة، أما في الاصـطلاح فهـو: إظهـار الإسلام، وإبطان الكفر. [2]

لماذا لم يظهر في مكة وظهر في المدينة ؟

لو تساءلنا عن بواعث النفاق لوجـدناها أمـورًا عدة، منها:

1-اعتقاد الكفر وكراهية الإسلام.

2-وجـــود المنـــافق تحت ســـيطرة حكومـــة إسلامية.

3-ضعفه عن مواجهـة هـذه الحكومـة بعقيدتـه التي يضمرها.

وفي مكة لم تكن سيطرة للحكومة الإسـلامية بـل بالأصـح لم تكن هنـاك حكومـة إسـلامية فيحتاج المخالف الضعيف إلى معاداتهـا، ولكن لما تكونت هـذه الحكومـة في المدينـة وعجـز ضعاف النفوس عن التصريح بمعتقداتهم آثروا أن يســلكوا ســبيلًا في ظلال تلــك الحكومــة القوية ألا وهو سبيل النفاق. ريثمـا يتيسـر لهم القضــاء على الإســلام أو التصــريح بكفــرهم

---

[1](?) لسان العرب (6/ 4508- 4509)، المعجم الوسيط (2/ 942)، المنافقون في القرآن الكريم ص 13 بتصرف.

[2](?) الجامع لأحكام القرآن (1/137)، المنافقون في القرآن الكريم ص 14 اللسان (6/4509).

وكراهيتهم أو التخلص من هيمنة هذه الحكومة القوية.[1]

******

متى ظهر النفاق

ظهر النفاق لما ظهرت للإسلام هيمنة وسيطرة على مجريات الساحة ولاسيما بعد معركة بدر.

موقفه عمومًا:

تميز موقفه مع المنافقين عمومًا بالمداراة والقول اللين والحذر من مكرهم، والقبول لأعذارهم ونحو ذلك من المواقف فمن القول اللِّين قوله لهم: {**لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**}.[2] لما قال السفهاء ومنهم المنافقين: {**مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**}[3] ومن الإعراض والمداراة أمر الله تعالى له في آية: {**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**}[4] وموقفه من عبد الله بن أُبيّ بن سلول عندما قال: {**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**}.[5] ومن قبول الأعذار ما حصل في غزوة تبوك عندما جاء المخلفون يعتذرون

---

[1] (?) انظر لزاماً المنافقون في القرآن الكريم ص 19.
[2] (?) سورة البقرة، الآية: 142.
[3] (?) سورة البقرة، الآية: 142.
[4] (?) سورة النساء، الآية: 63.
[5] (?) سورة المنافقون، الآية: 8.

له عن التخلف فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله واستغفر لهم.[1]

ومن الحذر من مكـرهم قولـه تبـارك وتقـدس لنبيــــه ﷺ عن المنـــــافقين: {**هُمُ الْعَـــدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**}.[2]

******

أولًا: موقــف المنــافقين من الإنفــاق في تجهيز جيش العسرة:

روى الشيخان من حديث أبي مسـعود البـدري أنه قال: لما أُمرنا بالصدقة كنا نتحامـل، فجـاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منـه، فقـال المنـافقون: إن اللـه لغـنى عن صـدقة هذا، وما فعل الآخر هذا إلا رئاء.[3]

وهـذا عبـد الـرحمن بن عـوف لمـا أتى ببعض ماله قالوا: والله لا يعطي عبد الرحمن عطيته إلا رياء.[4]

فـأنزل تعـالى بـراءة الأصـحاب الأطهـار ونعى على هؤلاء المنافقين وسخر منهم كما سخروا من المؤمنين لأنهم لم يسلم

من تجريحهم صاحب الكثير لأنه يبذل كثيرًا ولا صاحب القليل لأنه يبـذل القليـل!!. ذلـك وهم قاعدون متخلفـون منقبضـوا الأيـدي شـحيحوا

---

[1] (?) كما تقدم ذكره.
[2] (?) سورة المنافقون، الآية: 4.
[3] (?) رواه الشيخان.
[4] (?) الطبري (14/383 الأثر 17004) وتفسير القرآن العظيم (4/127).

الأنفس لا ينفقــون إلا ريــاء، ولا يــدركون من بواعث النفوس إلا مثـل هـذا البـاعث الصـغير الحقير. [1]

وحــدثنا تعــالى وتبــارك عن صــنف آخــر من المنافقين وهم الذين يتخذون نفقـاتهم غرامـة وخسارة، وينتظر أن تقع بـالمؤمنين الحـوادث والآفــات، ولم يعلمــوا أنهــا منعكســة عليهم والسـوء دائـر عليهم[2] ، قـال تعـالى وتـنزه عنهم: {**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِـقُ مَغْرَمًــا وَيَتَــرَبَّصُ بِكُمُ الــدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**}.[3]

******

ثانيًــا: مــوقفهم من المشــاركة في الغزوة :

كان موقف المنافقين سيئًا للغايـة حيث خذَّلوا وثبَّطوا الجماعة المؤمنة حيث كانوا يقولون لا تنفروا في الحر ونحوها من العبارات المخذلة، وقال أحد زعمائهم أئذن لي ولا تفتني.

قابـل ابن هشـام: وقـال قـوم من المنـافقين بعضهم لبعض لا تنفـروا في الحـر، زهـادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً

برسـول اللـه ﷺ[4] فهـؤلاء هم نمـوذج لضـعف الهمـة وطـراوة الإرادة، وكثـيرون هم الـذين يشـفقون من المتــاعب، ويُــؤثرون الراحــة

---

[1] (?) الظلال (3/1681).
[2] (?) تفسير القرآن العظيم (4/141).
[3] (?) سورة التوبة، الآية: 98.
[4] (?) السيرة النبوية (4/156).

الرخيصة على الكدح الكريم فيتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات لذلك رد الله عليهم متهكماً[1]: {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.[2]

وكذلك الجد بن قيس لما قال له هل لك في جلاد بني الأصفر؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر؟

ألا فليعلموا أنهم سقطوا وتردَّوا بهذا القول في هاوية الفتنة بأوسع معانيها لا في شيء آخر من شبهاتها أو مشابهاتها من حيث يزعمون اتقاء التعرض لشبهة نوع من أنواعها، وهو الإثم بالنظر إلى جمال نساء الروم.[3]

وحُقَّ لقائلٍ أن يقول بعد أن يرى أفعالهم المشينة:

فلو كان منه الخير إذ عتيدًا ضربت الخير يومًا

ولو كان لا خير ولا شر عنده

---

[1](?) في ظلال القرآن (3/1682).
[2](?) سورة التوبة، الآيتان: 81/82.
[3](?) تفسير القرآن الحكيم (10/477).

رضيت لعمـري بالكفـاف مـع
ولكنــه شــر ولا خــير عنــده
وليس على شر

******

الفصل الرابع

الآثار التي ترتبت على هذه الغزوة

أولًا: آثارها على المؤمنين[1]

1-ظهور الاستراتيجية العسكرية المتفوقة للقائـد الكبير محمد وذلك من جوانب عدة:

---

[1](?) الرسول القائد (417-418)، القبائل العربية في بلاد الشام (132-145).

1-تصريحه بالغزوة التي يقصـدها للمسـلمين، ليتـأهبوا كـل الأهبـة فالشـقة بعيـدة، والحالـة شديدة.
2-عنـدما مرَّ بـديار ثمـود لم ينس أن يرقـق الأرواح لتسـتثمر نعمـة الإيمـان بتـذكيرهم بمصـارع قـوم صـالح لمـا عصـوا وتعنتـوا على نبيهم عليه الصلاة والسلام .
5- اجتيـاز للمراحـل ليلًا تخلصًـا من الحـر الشديد.
8-بقاء الرسـول بتبـوك بعـد انسـحاب جيش الـروم لإرهـاب العـدو أكـثر وأكـثر وإرعـابهم، ولرفـع معنويـات المسـلمين أكـثر وأكـثر وإعزازهم.
2-إظهـار قـوة المسـلمين للعـرب المتنصـرة والمسلمين.

لأن الغزوة واكبت إسـتراتيجية إخضـاع الشـام لاسيما وأنها تمتاز بموقـع مهم ولأهميتهـا دينيًـا حيث ورد في فضـلها أحـاديث، ولصـلات الوشاجة، بين قبائـل الجزيـرة وقبائـل الشـام ولغناها بالثروات الإقتصادية بشكل عام.
3-إقامة علاقات وصلح مع قبائـل جنـوب الشـام التي كانت مقدمات لإسـلام هـذه القبائـل بـل ولفتح الشام كله، فتقـاطرت الوفـود في عـام سمى: عام الوفـود بعـد غـزوة تبـوك مباشـرة

فجاء وفد بني عامر بن الطفيل وإربد بن قيس وأقبل وفد بني سعد بن بكر بإمرة ضمام ابن ثعلبة، وأقبل وفد بني عبد القيس بإمرة الجارود وغيرها من الوفود.[1]

4-تأمين طرق المواصلات للجيش المسلم.

5-تسوية الأوضاع ما بين المدينة والشام لضمان عدم عِداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز للدولة الإسلامية عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان إن لم يكونوا اعتنقوا الإسلام.

6-انتصار الإيمان والرغبات الصادقة على كل العوائق والعقبات النفسية والإقتصادية.[2]

7-لفت نظر المسلمين إلى شمولية هذا الدين لكل الأجناس والناس.

******

ثانيًا: آثارها على المنافقين:

1-هتك أستارهم وظهور عوارهم، وإبراز صفاتهم المشينة لتبقى للأجيال المتعاقبة لتحذر منها وذلك مثل:

1-استغلال الفرص المناسبة للطعن في دعاة الإسلام وتشويه سمعتهم.

---

[1] (?) التاريخ الإسلامي ص 364-366.

[2] (?) من معين السيرة ص 446.

2-استـغلال الفـرص لإثـارة الشـبهات حـول الإسلام ليزعزعوا إيمان المؤمنين.
جـ- لا يهمهم إلا مصالحهم الذاتية والنجـاة من كل مكروه.
د- يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.
هـ- يقبضـون أيـديهم ويلمـزون المؤمـنين ويسخرون منهم.
وعلى حد عبارة صالح الشامي: إن المنـافقين ليسوا عناصر سلبية فحسب! ولكنهم إيجابيون في سلبيتهم فهم لا يسـاهمون في شـيء بـل يثبطون الآخرين عن كل شيء. [1]

******

ثالثًا: آثارها على الروم:

1-لم تقم للروم قائمة بعد هذه الغزوة إذ أنهـا تعـد الضـربة الثانيـة بعـد الضـربة الأولى في غـزوة مؤتـة علاوة على أن انسـحاب جيش الروم يعد هزيمة وإنخناسًا من قوة كانت تُعـد ضاربة وكبرى.
2-أيقن الفـرس وغـيرهم من الأعـداء الألـداء بقـوة هـذا الـدين، وأنـه سيسـتمر في جريانـه على ظهر البسيطة دون توقف بل بتوقد.

******

[1](?) التاريخ الإسلامي ص 364-366.

الفصل الخامس
دروس وعبر من الآيات

مما ينبغي التنبه لـه أن سـورة التوبـة تحـدثت بإسهاب عن هذه المعركة ممـا لم يحـدث من قبل ولا من بعد بهذا الزخم الكبـير من الآيـات الكريمـات وهـذا اكـبر دليـل على أهميـة هـذه الغزاة غـزاة العُسـَيرة، وعلى ما واكبهـا من أحداث.

قال تبارك وتمجد: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَـا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِـيتُمْ بِالْحَيَـاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِـرَةِ إِلَّا قَلِيـلٌ * إِلَّا تَنفِـرُوا يُعَـذِّبْكُمْ عَـذَابًا أَلِيمًـا وَيَسْـتَبْدِلْ قَوْمًـا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ * إِلَّا تَنصُـرُوهُ فَقَـدْ نَصَـرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَـا فِي الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَـاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَـأَنزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ**

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }.[1].

هداية الآيات:

حث وعتاب واستحثاث للمؤمنين للنفير للجهاد لأن هذا مقتضى الإيمان واليقين والتخلص من قيود وثُقلة الأرض، وعدم الرضا بمتاع الدنيا الزائل. فهذا أيضًا هو مقتضى العقل، فو الله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه. ولا من جزل رأيه ولا من عُدّ في أولي الألباب.

ومن لم يفعل فما أطاع الله، وما نصر الدِّين ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم. ويمحق دينهم فحقيقٌ على من تخلف أن يعذب عذابًا أليمًا، وألا يقام له وزن، فإن الاستعلاء على ثُقلة الأرض وعلى ضعف الناس إثبات للوجود الإنساني الكريم فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة.

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه على نصرة الله ورسوله بلا عون منهم ولا ولاء فالنصر من عند الله يؤتيه من يشاء.[2]

---

[1](?) سورة التوبة، الآيات: 38/40.

✶ قـال تبـارك وتمجـد: {**لَوْ كَـانَ عَرَضًـا قَرِيبًـا وَسَـفَرًا قَاصِـدًا لاتَّبَعُـوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّـقَّةُ وَسَـيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَـوِ اسْـتَطَعْنَا لَخَرَجْنَـا مَعَكُمْ يُهْلِكُـونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**}. [1]

هداية الآيات:

من هـذه الآيـة ومـا بعـدها يبـدأ الحـديث عن طوائف ضعفت وأضـعفت الصـف وآثـروا حب السلامة على الدار الآخرة.

حـدثنا تبـارك وتعـالى عن صـفاتهم المشـينة العديدة، ومنها: أن الأمـر لـو كـان أمـر عـرض قريب من الأعراض الدانية، وأمر سـفر قصـير الأمد مـأمون العاقبـة لاتبعـوك ولكنهـا الشـقة البعيـدة الـتي تتقاصـر دونهـا الهمم الضـعيفة والقلـوب الهزيلـة، بـل ومـع الحلـف الكـاذب المفضي إلى هلاكهم حقيقـة وإن كـان منجـاة في هذه الدنيا.

ولا غرو فالمؤمن باللـه واليـوم الآخـر لا يتلكـأ في الاسـتجابة للنـداء والهيعـة اتباعـًا لأمـره تعالى وابتغاءً لمرضاته، فإن الطريق إلى اللـه واضـحة لا تخطئ ولا يبقى في ريب مـتردد إلا المرضى.

* ثم يقـول تعـالى عنهم: {**وَلَـوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَـهُ عُـدَّةً وَلَكِنْ كَـرِهَ اللَّهُ**

---

[2](?) الظلال (3/ 1655- 1656) تفسير كلام المنان (3/ 232- 234) الجامع لأحكام القرآن (8/ 90- 93).

[1](?) سورة التوبة، الآية: 42.

انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}. [1] لماذا لأنهم لو خرجوا فيكم يا معشر المؤمنين المجاهدين ما زادوكم إلا خبالاً أي نقصًا، ولأوضعوا خلالكم ولسعوا في الفتنة وفرقوا بين جماعاتكم المتآلفة، يبغونكم الفتنة أي حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم لما تشبعت قلوبهم بالنفاق والضلال والدليل على ذلكم قوله

تعالى: {**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ**}. [2]
أي بمصيبتك وبعد مشاركتهم إياك يا محمد، لأن نفس المعصوم قد تحزن لذلك قال تعالى مسليًا إياه آمرًا أن يقول لهم: {**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**}. [3]
والتوكل هو الاعتماد، والمولى هو الناصر، وما يصيبنا هو ما كُتب لنا في اللوح المحفوظ فموتوا بغيظكم أيها المنافقون واعلموا أنكم تنتظرون بنا ما تظنونه سوءً وهو غاية ما نتمناه إذ إنَّ السوء عندكم هو النصر أو الشهادة ولكننا نحن ننتظر أن يصيبكم الله بعذاب سماوي لا سبب لنا فيه أو بأيدينا بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم شر تقتيل وهذا هو

[1] (?) سورة التوبة، الآية: 46.
[2] (?) سورة التوبة، الآية: 50.
[3] (?) سورة التوبة، الآية: 51.

قوله جل وعز: {**قُلْ هَلْ تَربَّصُـونَ بِنَـا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْـنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَـرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْـدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**}. [1]

وذكر تعالى جانب الإنفاق الذي كانوا غايـة في السـلبية فيـه فقـال تبـارك وتقـدس: {**قُـلْ أَنفِقُوا طَوْعًـا أَوْ كَرْهًـا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**}. [2] حيث فضـح اللـه أسـتارهم وقـرر القواعـد الـتي امتـاز بهـا هـذا الصنف المرذول. [3]

* قال تبارك وتمجـد: {**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِـزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُـوا مِنْهَـا رَضُـوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَـاهُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ سَـيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُـولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُـونَ** }. [4]

هداية الآيات:

يقول تعالى لنبيه: من المنافقين يا محمــد من يعيب عدالتك في توزيع الصدقات، مدّعيًا أنـك تحابي في قسمتها وهم لا يقولون ذلـك غضـبًا للعدل ولا غـيرةً على الدِّين إنمـا يقولونـه لهم

---

[1](?) سورة التوبة، الآية: 52.

[2](?) سورة التوبة، الآية: 53.

[3](?) تفسير كلام المنان (3/ 243- 247) الظلال (3/ 1662- 1665).

[4](?) سورة التوبة، الآيات: 58/ 59.

لحساب ذواتهم وأطماعهم ومصالحهم الشخصية، ويا ليتهم علموا أنهم لو رضوا بما قسمت لهم وقنعت نفوسهم ورجوا مِنَنَ الله وآلاءه، وتذكروا يوم المعاد لكان خيرًا لهم وأقوم ولكن أضلّهم الله بكفرهم فلا يفقهون شيئًا.[1]

والعجيب أن إيذاءهم لصاحب الرسالة الخالدة لا يقف عند حد بل هذا فريق منهم يقولون عنه: هو أُذُن أي لا يبالون

بما يقولون من الأذيّة للنبي ويقولون إذا بلغه عنا بعض ذلك جئنا نعتذر إليه فيقبل منَّا لأنه يقبل كل شيء يقال له لا يميز بين الصادق والكاذب، وما درى المساكين أنه يعرض عنهم ويقبل أعذارهم إعراضًا عنهم لخبث طواياهم، ولأنه جُبل على التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة عدد ما ذكره الذاكرون وعدد ما غفل عنه الغافلون.[2]

قال تبارك وتمجد: {**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ**}.[3]

هداية الآيات:

يثير ويبعثر ويفضح تبارك وتعالى ما أكنته تلك الصدور الكالحة السقيمة، فما زال الله يقول:

---

[1](?) في ظلال القرآن (3/ 1667).
[2](?) تفسير كلام المنان (3/ 355- 356)
[3](?) سورة التوبة، الآية 64.

ومنهم، ومنهم، ويذكر أوصافهم إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

1-أن الله ستِّير يحب السَّتر على عباده.

2-أن الذمَّ على من اتصف بذلك الوصف إلا أنه لم يفضح بل لم يعين أشخاصهم وغيرهم إلى يوم القيامة.

فيقول تعالى عن حالهم ما تقدم قبل قليل، بحيث تصبح أسرارهم وفضائحهم مكشوفة حتى تكون علانية لعباده وليكونوا عبرةً للمعتبرين.

فاستمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية فالله مخرج ما تحذرون وقد وفى تعالى بوعده فأنزل تعالى هذه السورة فهتك أستارهم، فمن فضائحهم كرههم لهذه الشريعة الغراء وكفرهم بها، واستهزاءهم بالله وبرسوله وبالمؤمنين، وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف على كل حال أسلافهم الذين استمتعوا بنصيبهم الفاني. ولذلك أمر تعالى نبيه بجهاد الكفار والمنافقين بأن يُغلظ عليهم ثم بين تعالى أن مأواهم جهنم وبئس المصير.[1]

* قال تبارك وتقدس: {**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ**

[1](?) تفسير كلام المنان (3/ 258) الظلال (3/ 1673).

مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.[1]

هداية الآيات:

وهذا أيضًا من مخازي المنافقين فكانوا – قبحهم الله- لا يدعون شيئًا من الأمور يرون لهم مقالاً فيها إلا قالوا وطعنوا بغيًا وعدوانًا، فلمزوا المكثر بأنَّ قصده بنفقته الرياء والسمعة وقالوا للمقلّ الفقير إن الله غني عن صدقة هذا فأنزل تعالى هذه الآية فاضحًا لهم وساخرًا منهم. إلا أنه هول جسيم

وخطب عظيم.[2]

*قال تبارك وتقدس: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.[3]

هداية الآيات:

---

[1] (?) سورة التوبة، الآية: 79.
[2] (?) تفسير كلام المنان (3/ 271) الظلال (3/ 1681).
[3] (?) سورة التوبة، الآيات: 81/ 82.

وهـذا قـدر زائـد على مجـرد التخلـف، فـإن التخلـف محـرم، وزيـادة رضاً بفعـل المعصـية وتبجح به، فازداد الأمر سوءً على سوء.

إنهـــا المهانـــة والإخلاد إلى الأرض، والتحلـــل من التكـــاليف، فقـــارن بين حـالهم وحـال أولئـك المؤمـنين الـذين تخلفـوا مبـدئيًا بعـذر فتقطعت قلـوبهم حزنًا وفاضت عيونهم دمعًـا، إنـه طـراز آخر، وعملة نادرة يقول الناظر إليها:

من لي بمثـل سـيرك   تمشـي رويـدًا وتجي

إن الـذي لا يكابـد عقبـات الكفـاح، ولا يعـالج الشدائد ويلتـذ بـالجراح لطـري الإرادة، بـائس المصير، مثل هذا الصنف المسكين الـذي آثـر الراحة المسترخية، والإخلاد البليـد فـأين هم؟ وكيـف بهم في حـر نـار جهنم وهي أشدُّ حـرًا من ذلك

المناخ، وأطول أمـدًا من شـُقَة الطريـق إلى تبوك؟

إذن فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثـيرًا لأن الجـزاء من جنس العمـل، على أن هـذا الصـنف ليس بأهلٍ أن ينال شرف الجهـاد على الأعـداء لأنـه عـدو في ذاتـه، فـإن رجعت إليهم يـا محمـد ﷺ فقـل لهم: لن تخرجـوا معي أبـدًا ولن تقـاتلوا

معي عــدوًا إنكم رضــيتم بــالقعود أول مــرة فاقعدوا مع الخالفين لأن الصف الـذي يتخللـه الضعاف المسـترخون لا يصـمد لأنـه يخذلونـه في ساعة الشدة فيخــذلون معهم من لم يكن على شاكلتهم، كما ورد في الآيـة التاليـة للآيـة المذكورة في الأول[1].

✶ قال تبارك وتنزه: {**وَإِذَا أُنزِلَتْ سُـورَةٌ أَنْ آمِنُـوا بِاللَّهِ وَجَاهِـدُوا مَـعَ رَسُـولِهِ اسْـتَأْذَنَكَ أُوْلُـوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَـالُوا ذَرْنَـا نَكُنْ مَـعَ الْقَاعِـدِينَ * رَضُـوا بِـأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ * لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْـــــــرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا ذَلِـكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** }.[2]

هداية الآيات:

صـورتان وطبيعتـان، صـورة وطبيعـة الإيمـان والقوة. وصورة النفاق والضعف وطبيعته..

إذا أُنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الغــنى والأموال الذين لا عذر لهم لا ليُقدموا ويتقدموا بـل ليخـذلوا ويتكاسـلوا ويطلبـوا القعـود مـع النساء دون استشعار للذلة والهـوان ولا عجب

---

[1] (?) الظلال (3/ 1682- 1683)، تفسير كلام المنان (3/ 274- 275)

[2] (?) سورة التوبة، الآيات: 86/ 89.

فالقلوب مطبوع عليها ومختوم فهي لا تفقه مصالحها.

وانظر إلى الطراز المتألق في شموخ، إلى الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم بلا تكاسل ولا انخذال ونهضوا بتكاليف العقيدة وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود فنالوها في الدنيا ونالوا السعادة السرمدية لمَّا آثروها على السعادة الأبدية، جنات تلك هي أوصافها. [1]

موقف البكائين:

يصور لنا مدى الرغبة الحقة في إراقة الدماء من أجل إعلاء كلمة الله، فهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم إلى أرض المعركة فإذا حُرموا شرف الجهاد تألمت نفوسهم حتى إن عيونهم لتنفيض دموعًا لأنهم لا يجدون ما ينفقون.

فهؤلاء وأمثالهم لا حرج عليهم وإذا سقط الحرج عنهم عاد الأمر إلى أصله وهو أن من نوى الخير واقترن بنيته الجازمة سعى في ما يقدر عليه ثم لم يقدر فإنه يُنزَّل منزلة الفاعل التام. [2]

*قال الله تعالى وتقدس: {**يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**

---

[1] (?) الظلال (3/ 1684- 1685)، تفسير كلام المنان (3/ 278-279).

[2] (?) الظلال (3/ 1685)، تفسير كلام المنان (3/ 282) على تفصيل في مسألة العجز انظره في المنتقى من فرائد الفوائد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 13.

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.[1]

هداية الآيات:

إنباء من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين الخُلصَّ بما سيكون من أمر هؤلاء المنافقين من الاعتذار والحلف الكاذب ليكون جواب المؤمنين، وقّروا معاذيركم، لن نصدقكم، فصادق القيل كشف لنا حقيقتكم،وقصَّ علينا دوافع مخازيكم، فتجلَّت لنا ولم تعد مستورةً، فاعلموا في الدنيا لأن العمل هو ميزان الصدق أما مجرد الأقوال فلا تدل على شيء ثم أنَّ مردكم إلى الله فينبئكم بما كنتم تعملون من خير وشر فيجازيكم بعدله أو بفضله.[2]

أما الصنف الذي سيحلف لكيلا توبخوهم أو لا تقتلوهم، فإنهم قذر ورجس بأرواحهم فأعرضوا عنهم واشمئزوا من نتنهم فإن

---

[1](?) سورة التوبة، الآيات: 94/ 96.

[2](?) الظلال (3/ 1695)، السعدي (3/ 283- 284).

مأواهم جهنم جـزاء كسـبهم أعمـالهم الخبيثـة في هذه الدار، وحتى لو رضيتم عنهم فإنَّ الله لا يرضى عنهم ما داوموا فاسقين خارجين من ربقة الولاء الصادق والإذعان الواثق. [1]

ثم تحـدث تعـالى عن الأعـراب وهم سـكان البـوادي وأخـبر بـأنهم أشدُّ كفـرًا ونفاقًـا من الحاضرة لأسباب عدة:

1-أنهم بعيدون عن فقه الشرائع، وحـدود اللـه فهم جـديرون بـذلك بخلاف الحاضـرة فـإنهم أقرب إلى فقه الشرائع والحدود ومعرفتها.

2-أنهم جفـاة الطبـع، ولـذلك قـال ﷺ: **«من سكن البادية جفا»** [2] وعليه فإن الحاضـرة فيهم من لطافـة الطبـع والانقيـاد للـداعي مـا ليس في الباديـة فهم يجالسـون أهـل الإيمـان ويخـالطونهم أكـثر من الباديـة ولـذلك كـانوا أحرى للخير من البادية.

3-أنهم أحرص على الأموال وأشح ولذلك يعـد بعضهم الإنفاق في سبيل الله خسـارة ونقصًـا بل وينتظر السُّوء يحل

بالمؤمنين ولأنَّ الله يجازي كل بعمله سـتكون النتيجة عليهم دائرة السوء.

---

[1](?) الظلال (3/ 1696)، السعدي (3/ 284- 285).

[2](?) رواه الثلاثة وصححه الترمذي.

ولكن رويدًا
فليس كل الأعراب كـذلك بـل إن حـال بعضهم كما قال الأول:

لــه خلائــق بيض لا يغيرها
صرف الزمان كما لا يصدأ

فهذا الصنف يؤمن بالله واليـوم الآخـر، وعليـه فهو سالم من الكفر والنفاق ويحتسـب نفقتـه يبتغي بها وجه الله ويجعلهـا وسـيلة إلى دعـاء الرسول ﷺ وتبريكه عليهم وقال تعـالى وتمجـد مبينًا لنفع صلوات الرسول ﷺ: {**أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ**} في جملة عباده الصالحين لأنـه غفـور رحيم عفـو كريم.[1]

*قـال اللـه جـل وعـز: {**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**}.[2]

من هداية الآيتين:

 تفضـل اللـه تعـالى بالتوبـة على النـبي ﷺ والمهاجرين

والأنصار فغفر لهم الـزلات ورقّـاهم إلى أعلى الـدرجات بسـبب قيـامهم بالأعمـال الشـاقات

---

[1] (?) تفسير كلام المنان (3/ 286- 287).
[2] (?) سورة التوبة، الآية: 99.

ولـــذا قـــال: {**الَّذِينَ اتَّبَعُــوهُ فِي سَــاعَةِ الْعُسْــرَةِ**}- ويــا ليت شــعري كيــف حــال المنافقين والمخلفين في المدينـة وهـذه الآيـة تطرق أسماعهم- فاستعانوا به تعالى من بعــد مــا تقلَّبت بعض القلــوب واســتثقلت قطــع الدروب ولكن هو التثـبيت السـماوي، ثم تـاب عليهم أي قبل توبتهم لأنه رؤوف بهم.

وتاب الله أيضًا على الثلاثة الذين خلفـوا حـتى إذا حزنوا حُزنًا عظيمًـا وضـاقت عليهم الأرض على رحبها وسعتها، وضـاقت عليهم أنفسـهم- أي أتــاهم الضــيق والكــرب من كــل مكــان وأغلقت كل السبل أمامهم وتيقنوا أنه لا ينجي من الشــدائد ولا يلجــأ إلا إلى العلي القــدير فانقطع تعلقهم بالكون ومن سـكنه – أذن في تـوبتهم ووفقهم لهـا لتقـع منهم فيتـوب عليهم لأنَّه كثير التوبة والعفـو والغفـران عن الـزلات والنقصان، عظيم الرحمة فما أعظم اللـه ومـا أكرم اللـه ومـا أجلَّ مِنَنَـه حيث لطـف بعبـاده وثبَّتهم، وسهَّل لهم العبـــادة الشـــاقة وأعظم لهم مثوبتها، وتاب عليهم. [1].

[1](?) تفسير كلام المنان (3/ 308- 310)، وانظر فتح القدير (2/ 413).

خاتمة المطاف

بعـــد أن عشـــنا في هـــذه الأفيـــاء الإيمانيـــة والريــاض الربانيــة وعرفنــا شــيئًا يســيرًا عن الجهاد وغاياته، وعرفنا شيئًا يسـيرًا عن غـزوة العسيرة، ورأينا كيـف يفعـل الإيمـان الصـادق حيث يغـذ السـير بصـاحبه إلى الجـود بـالروح والمـال إن ضـن البخيـل بهمـا ليحيـا الحيـاة الكريمـة إذ لابـد لهـا من ضـريبة وبـذل ورأينـا بالمقابل أحوال أهل النفاق والشقاق يُلبِّسون، ورأينـــا آثـــار الغـــزوة على المؤمـــنين وعلى الكافرين والمنافقين والروم، وختمنا المطـاف ببعض الدروس والهدايات التي تؤخذ من بعض تلك الآيات البينات.

بعد ذلك كله...

نســـأله تعـــالى أن يجعلنـــا من المخلصـــين المخلَصـــين، وأن يعيـــذنا من أحـــوال النفـــاق والمنـــافقين وأن يقرَّ أعيننـــا بنصـــر الإســـلام والمسلمين.

وصـلى اللـه وسـلم على نبينـا محمـد وآلـه وصحبه وسلم.

وكتبه/ عمر بن موسى الحافظ
ص. ب: 55225 ر. ب: 11534
الرياض (حرسها الله)

الفهرس